الصبر على فراق المحبوبة في العصر الجاهلى

نورا عبد المنعم فرغلى

إن المحب شأنه شأن كل المحبين يريد أن ينعم بالقرب من محبوبته ويهنأ بوصالها "مَن هوى إنسانا فإنما قصاراه حين يهواه أن يعيد النظر إليه فيروى من شخصه، يستمتع من لفظه، فإذا تهيأ ذلك له ازداد وجده به أضعافاً على ما كان في قلبه ثم تدعوه نفسه بعد ذلك إلى كثرة التلاقي والمواصلة ولكنها الرياح التي تأتي بما لا تشتهي السفن، ويحدث فراق بين المحبين، إما بقصد أو بدون قصد "وربما أعرض العاشق عن المعشوق إما من جهة الامتحان للصبر، وإما لتجديد حاله عند محبوبه(1) أو أن ترحل المحبوبة عن ديارها وتقيم في مكان بعيد عن محبوبها، أو تموت أو تتزوج بغيره أو ينتهي الحب من قلبها وتهجره أو تكون متعمدة الفراق تمنعا منها لكونها حرة، والحرة صعبة المنال والاستجابة سريعا، وأيا كانت دواعي الفراق فإن حدوثه يحيل الحياة معه إلى همٍّ وحزن.

ولقد عبر الشعراء الجاهليون في كثير من أبياتهم عن تلك الحالة وما صاحبها من شعور المحبين لحظة وقوع الفراق أو بعد وقوع الفراق، وما نتج عنه إثر فراقهم أحبتهم.

و" عنترة " واحد من الشعراء المحبين الذين فرق القدر بينه وبين محبوبته. فقد ربط الحب بين الشاعر وابنة عمه، ولكن والدها تعنت إزاء هذا الحب ورفض زواجها بعبد أسود، وفرق بينهما فلذع الشوق قلبه، وحزن لفراقها كثيرا، يقول:

(الطويل)

أُقَاتِلُ أشْواقِي بِصبْري تَجلُّدا * وَقلبْي فِي قَيدِ الغَرامِ مُقيَّدُ(2)

يحن الشاعر إلى محبوبته التي فارقته، والتي أغلق قلبه على غرامها، وأصبح أسيرا لها، ويستخدم الشاعر الفارس في حروبه أدوات الحرب من سيف ورمح وقوس وغيرها من الأسلحة للانتصار على العدو، وفي ذات الوقت يعد الشاعر أشواقه عدوا له يجب عليه محاربته، و الانتصار

عليه، ولكنه في هذه الحرب لا يستخدم المعدات الحربية الشائعة، وإنما يحارب أشواقه ويقاتلها بالصبر والتجلد "فقد عانى عنترة بن شداد من عقدة السواد ونسبه، واجتهد لتعويض ما فات، وتمسك بصفاته التي تتحلى بها نفسه، بدلا من صورته الجسمية التي منعته المزايا الاجتماعية"(3) فيستبدل السيف والرمح بالصبر لينتصر على حنينه لمحبوبته. فكأن الصبر هو سلاحه في معركة الأشواق، وإذا كان عنترة يعاني من عقدة الرق والعبودية، إلا أنه في حبه لابنة عمه رضي أن يكون أسيرا لها ولهواها، مقيد القلب بغرامها.

ويصبر على دلالها وهجرها في موضع آخر يقول: (الطويل)

لَبستُ لهَا دِرعَا مِن الصَّبرِ مَانِعا * وَلاقيْتُ جَيشَ الشَّوقِ مُنفَردا وَحْدي(4)

لا يزال "عنترة " يتدرع بالصبر الذي لا يزال يعده عدته إذا فارق المحبوبة، ويستخدم الشاعر مفرداته الحربية "جيش"، "درع" في حديثه عن الحب، فقد كانت الحرب عالم الشاعر الذي يحقق من خلالها ذاته، "فالشاعر يتحرك ويحيا بالحرب وفيما وراءها"(5) حتى عندما يتحدث عن عشقه وفراقه يأتي بهما في ثنايا حديثه عن الحرب، وكان الحب محور حياة الشاعر. فهو دائم الذكر لمحبوبته حتى في وغى الحرب، وكما يواجه أعداءه بمفرده، ويعتمد على نفسه وشجاعته الحربية فإنه أيضا يواجه جيش أشواقه إلى محبوبته وحده بعد أن تسلح بالصبر الذي من خلاله استطاع مواجهة جيش أشواقه، وتدل "جيش الشوق" على شدة صبابة الشاعر، وعمق حنينه إلى المحبوبة التي أشعلت في نفسه بفراقها نيران الشوق والحنين، والتي يعاني منها الشاعر دوما.

ويصبر "بشر بن أبي خازم" لحظة وقوع الفراق، يقول : (الوافر)

فَإنَّكِ لَو رَأيتِ غَداةَ بِنتُم * خُشُوعِي لِلتَّفرقِ وَاعْترافِي(6)

ترحل المحبوبة عن ديارها، وبرحيلها تقع الفرقة بينها وبين الشاعر، ويصبر الشاعر على الفراق ويرضى به رغم ضعف الشاعر حيال المحبوبة وخشوعه لها، وتضرعه إليها " فالنفوس تذل للفراق، وتنقاد معه لدواعي الإشفاق والاشتياق"(7) إلا أنه لا يملك من أمره إلا الصبر والاعتراف

بواقع الحال والرضا بما كتبه الله عليه، وخشوع الشاعر يدل على انكساره، وقلة حيلته فلم يجد أمامه إلا الصبر ليعينه على ما ابتلى به.

وكانت لحظة الفراق من أقسى اللحظات التي مر بها "الحطيئة"(*) يقول:

(الكامل)

فَتَبَادرتْ عَينَاك إذْ فَارقْتُهَا * يَومَا وَأنتَ عَلى الفِراقِ صَبورُ(8)

يتذكر الشاعر يوم فراقه المحبوبة، وكيف إنه لم يتمالك نفسه فسالت الدموع من عينيه رغما عنه، ولكن منَّ الله عليه بالصبر، ودموع الشاعر تدل على طبعه الرقيق الذي يفيض رقة وحنانا وجوى وعشقا فربما ودَّ الشاعر لو تقلع عيناه فلا يرى بهما محبوبته وهي ظاعنة بعيدة عنه، وربما سالت دموعه لمعرفته بما سيجري له بعد الفراق "إذا تفكر فيما يحل به ساعة من انقطاع الآمال، وحلول الأوجاع، وتبدل السرور بالحزن، وأنها ساعة ترق القلوب القاسية، وتلين الأفئدة الغلاظ"(9), ودموع الشاعر تنبئ عن بالغ عشقه، هذه الدموع لا تظهر إلا في ساعات الوجد، ومشاعر اللوعة والفراق، والتي يعز فيها على الأحباب فراق أحبتهم، فتنحدر الدموع من أعينهم، ويعزُّون أنفسهم بتتبع أبصارهم للحبيب الراحل وقت رحيله متوسلين إلى الله تعالى أن يشمله بعنايته، ويحوطه بالرعاية والأمان، وأن يقدر لهم اللقاء مرة أخرى، وربما أملهم هذا ما دفعهم إلى صبرهم على الفراق.

ويفخر " عنترة " بصبره على فراق محبوبته، يقول: (الطويل)

سَأَحْلُمُ عَن قَومِي وَلو سَفكُوا دَمي* وَأَجْرَعُ فِيكِ الصَّبرَ دُونَ المَلا وَحدِي(10)

يتجرع الشاعر مرارة الصبر، ويعاني وحده مر الفراق، فقوم عنترة أنكروا عليه حب ابنة عمه، ولكن نظراً لشجاعته وبأسه في الحروب استطاعوا أن يخدعوه، فإذا أغارت عليهم قبيلة لجأوا إليه، ووعدوه بالزواج من ابنة عمه؛ فإذا ما جاءهم بالنصر نكثوا عهدهم معه، وفرقوا بينه وبين محبوبته، وهو يفخر ببعض المكارم التي تحلى بها، مثل: الحلم والعفو والصبر، ويفخر بأخلاقه التي خلدته

كفارس، فقد "تكاملت الفروسية عند عنترة، فلم تصبح فروسية حربية فحسب بل أصبحت فروسية خلقية سامية، فيها الحب الطاهر العفيف، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الرقيق"(11).

هذه الفروسية بعثت في نفس الشاعر نوعا من التسامي والإحساس بالمروءة والنبل. فالشاعر يحلم عن قومه في الوقت الذي أنكروا فيه نسبه وسخروا منه، ويعفو عنهم ويتغاضى عن أفعالهم، وهو يصبر على قطيعة محبوبته المتعمدة، ولذا استحق عنترة أن يكون من فرسان الجاهلية ونبلائها.

ويصبر " عنترة " حتى لا يشمت به عواذله، يقول: (الطويل)

سَأَصْبرُ حتَّى تَطرحَني عَواذِلى * وَحتَّى يَضجَّ الصَّبرَ بيْن جَوانِبِي(12)

العواذل يترقبون الشاعر وينتظرون رد فعله على فراق محبوبته له، ولكن الشاعر يفاجئهم بالصبر على بعد المحبوبة وتحمله الفراق مما يجعل لائموه في الهوى يبتعدون عن طريقه، وحتى يصيح ويصرخ الصبر بين أضلعه كناية عن صبره الشديد في غير يأس. فالعواذل لم تتح لهم الفرصة ليتشفوا من الشاعر، وإنما بصبر الشاعر استطاع أن يغضبهم ويكيد بهم. والعاذل من آفات الحب كما يطلق عليه ابن حزم حيث يقول "وللحب آفات: فأولها العاذل والعذال أقسام... والآفة الثانية الرقيب... والآفة الثالثة الواشي"(13) والعاذل من الشخصيات التي تظهر لتعكر صفو المحبين، وهي تكون لهم بالمرصاد ترصد كل تحركاتهم، وتراقبهم ولا تود أن تراهم في هناء وسرور بل يحسدون عليهم نعمة الحب. لكن حدث مع عنترة خلاف ذلك خاصة أن المحبوبة بالغت في فراقها فكأنها اتفقت مع العذال علي الشاعر المحب مما جعله يواجهها بالصبر ويتغلب عليها.

ويقف "طرفة بن العبد" مع أصحابه على أطلال المحبوبة التي رحلت وينصحونه بالصبر على فراقها،

يقول: (الطويل)

وقُوفا بِها صَحبِي عَليَّ مَطيِّهم * يَقولُون لَا تَهلكْ أسَى وتَجلَّد(14)

عندما وقف الشاعر علي ديار المحبوبة ولم يجدها كانت دموعه التي عبرت عن لوعته وحزنه، وعندما رآه أصحابه في هذه الحال رقوا لحاله، وعطفوا عليه، ونصحوه بالصبر والتجلد. فبينما كان الشاعر "غارقا في وقفة صوفية تصطرع فيها عوامل الحياة والفناء فهي مشاعر حزينة نابعة من إحساسه بالمفارقة بين الحياة والموت، وبين إرادة الحياة والفناء"(15) . فالشاعر مشدود إلى ماضي الديار وما يحويه، وما يثيره، وهو يحن إلى هذه الأطلال وساكنيها، وأيام الصفاء والسعادة وقف الشاعر ووقف كثيرا، ولكن وقوفه لن ينفعه ولن يجدي، ولذا فأصحابه دعوه إلى مغادرة المكان والصبر، وربما كان في أساه ووقوفه على الأطلال راحة لنفسه وهدوء لقلبه الذي يستقر به حزن دفين. فقد ابتلي الشاعر بالوقوف على الأطلال، ويدل تعبير أنه لم يمل من الوقوف، ولم ييأس، وأنه باستمرار يذهب إلى الأطلال التي كان يسكن فيها الأحبة، ويطلب من أصحابه أن يشاركوه الوقوف؛ ليعرفوا مدى حزنه، يبدو أنهم قد لبوا طلبه، ووقفوا معه وشاهدوا حزنه العميق فطلبوا منه ألا يلقي بنفسه في الهلاك من شدة الحزن عندما تذكر حبيبته، ورأى بقايا ديارها وأن الصبر أولى به.

وهذا "زهير بن أبي سلمى" الذي لم يتأثر كثيرا بفراق محبوبته، يقول:

(الطويل)

أَلَم تَعلَمي أنِّي إذَا وَصْل خُلَّة * كَذاك تَولَّى كُنتُ بِالصَّبرِ أجْدرَا(16)

لم يعبأ الشاعر بغياب المحبوبة، وربما كان متعمدا ذلك، ويريد إخبارها بأنها متى قطعته بعد وصالها فهو يصبر على الفراق؛ لأن الصبر أجدى له فوصلها كصرمها لا يأخذه الشاعر بعين الاعتبار، ومن الجائز أن المحبوبة لم يكن لها في قلب الشاعر منزلة تجعله يحزن لبعدها، وربما كان وقار الشاعر لا يتلاءم أن يجزع عند الفراق. فالشاعر لا تستهويه المحبوبة، وربما أعرض عنها بخطره طوعا، فقد كان يتميز "بالطبع الرصين، والترفع عن التبذل في الحب، والتذلل للمحبوبة، وإيثار الجد والرجولة على اللهو والتخنث"(17).فالشاعر لا يجزع لفراق امرأة.

وتتكرر مأساة الفراق مع "امرئ القيس" ، يقول: (الطويل)

وُقُوفَا بِها صَحبِي عَليَّ مَطيِّهم * يَقوُلون لَا تَهلِك أسَى وَتَجمَّل(18)

وقف الشاعر على أطلال محبوبته وتذكرها فشعر بحزن وأسى فلامه أصحابه على وقوفه فلم يستجب لهم. ثم دعوه إلى الصبر والتحمل بمقدار الألم الذي يشعر به. فقد ارتبط الشاعر بهذه الديار وبأيام خاصة فيها، وذكريات تحش قلبه حشا لفراق أهلها. فالوقوف على الديار جددت ذكرى المحبوبة التي فقدها. فالمكان الطللي "المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً ذا أبعاد هندسية وحسب فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز"(19)وقد وقف الشاعر على هذه الديار وفاءً منه لمحبوبته. فهو يريدها أن تعرف أنه يتذكرها دائما، ولن ينساها على مر الأيام، وسيظل باقيا

على عهدها. فهو يستلذ ويرتاح لهذا الوقوف، ويهنأ عندما يتذكر ماضي الديار، ولكن الوقوف لا يغير من واقع الأمر شيئا، ولن يبدل الحزن الذي استبد به، وكأن الشاعر يتحدث إلى الأطلال ويجري معها حوارا، ولكن هيهات؛ فالأطلال لن تجيب ولن تلبي النداء.

وقد كانت الأطلال الجسر الذي يربط بين الماضي والحاضر. فالشاعر يعيش زمنين في وقت واحد: زمن ماضي الديار وما بها من وصل وحب، وبين زمن حاضر فيه ما فيه من الفراق واللوعة والحسرة. فوقوفه في هذا المكان يفيض بالحنين والبكاء على الديار القديمة التي رحلت عنها المحبوبة، وبرغم رحيلها فإن الشاعر يأتي دوما إلى المكان وينظر إليه؛ لأن المكان "بأشيائه وأبعاده يعكس التراجيديا العربية الجاهلية، التي تنعكس بدورها في تشكيل الطبيعة العربية النفسية القديمة"(20)هذه النظرة للمكان – الطلل– حملت طابع الحنين والاشتياق وامتزجت في آلام الشاعر وذكرياته فعلى الرغم من حضور ملامح هذا المكان حضورا قويا في نفسية الشاعر. فإن ثمة إحساس واضح لدى الشاعر بالوحشة والغربة عن المكان، والشاعر استحضر الزمن الماضي واندمج فيه فهو متشبث بالماضي لا يريد الفكاك منه، ولكنه اختار الرجوع إلى الماضي والصبر على الحاضر.

فـ "عنترة " هام حباً بابنة عمه، ولكن أباها استكثرها عليه، ورفضه لسواده الشديد ولأنه ابن أَمَة، فهو عندهم عبد وضيع لا يليق به أن يخطب ودّ بنت السادات والأشراف مما جعل عنترة يخوض حروبا من أجل هذا الحب الذي شغف به، وهو لم ييأس من حبها بل زاد تعلقا وهياما بها، ونظم في حبها جميل أشعاره، يقول: (الوافر)

إذَا لَعبِ الغَرَامُ بِكلِّ حُرِّ * حَمدتُ تَجلُّدي وَشَكرتُ صَبرِي(21)

كانت قيمة الشاعر تتجلى في أخلاقياته الحميدة، والتي تكشف على أنه من الأحرار، وليس من العبيد، والشاعر يعد نفسه كذلك، وفي الوقت ذاته هو عبد لحبه. فإذا ما أصابه الحب لجأ إلى الصبر، وهو يشكر صبره؛ لأنه الطريق الذي أعانه على تحمل هواه وعشقه، ويتسامى عنترة في حبه ويستنجد بالصبر. فالشاعر يريد إثبات حريته عن طريق صبره وجلده هذه الصفات التي لا يتحلى بها إلا الفرسان. كان من الصعب الفصل بين كون عنترة فارساً حراً، وبين كونه عاشقاً صابراً. فروسيته كانت طريقاً إلى حبه كما كان حبه محرضاً لفروسيته، وقد زاوج الشاعر بينهما، ويفخر الشاعر بنفسه في ثقة وزهو، وهو فخر "كان الشاعر مدفوعا إليه دفعا قويا؛ لأنه كان يخوض معركة ضارية لإثبات نسب، ولانتزاع حق، وللرد على خصوم، وللظفر بمحبوبة لا يراه أهلها كفؤا له، وللتعويض من لون مفروض عليه, وعندما يرى الشاعر ما فعل الحب بالمحبين الأحرار يحمد تجلده، ويثني على صبره وتحمله لويلات الحب ونيرانه.

الهوامش:

1-الأصبهانى : الزهرة . جـ1صـ141 .

2-الأصبهانى : الزهرة . جـ1صـ351 .

3-ديوان عنترة : صـ54 .

4-حسين كيلانى : دراسة نفسية في شعر عنترة بن شداد .صـ69 .

5-ديوان عنترة : صـ66.

6-أدونيس " على أحمد سعيد ": مقدمة للشعر العربى.صـ18.

7-ديوان بشر بن أبى خازم : صـ105.

8-الأصبهانى : الزهرة .جـ1صـ269.

9-ديوان الحطيئة : صـ87.

10-ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف.85.

11-ديوان عنترة : صـ62.

12-شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى).374 .

13-ديوان عنترة : 35 .

14-ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف .صـ43-56 .

15-ديوان طرفة : صـ5.

16-غازى طليمات وعرفان الأشقر : الأدب الجاهلى قضاياه . أغراضه .أعلامه . فنونه .صـ245 .

17-ديوان زهير بن أبى سلمى : 260 .

18-غازى طليمات وعرفان الأشقر : الأدب الجاهلى قضاياه . أغراضه . أعلامه .فنونه .صـ306.

19-ديوان امرئ القيس : مجـ1صـ173 .

20-جاستون باشلار : جماليات المكان . صـ31 .

21-ديوان عنترة : صـ82 .

المصادر والمراجع:

-أدونيس " على أحمد سعيد " : مقدمة للشعر العربى. دار العودة . بيروت . ط3 .1979م.

-الأصبهانى (أبو بكر محمد بن داود): الزهرة . حقق له : د/ إبراهيم السامرائى . مكتبة المنار .الأردن. الزرقاء. ط2 .1985م.

-امرؤ القيس : الديوان وملحقاته. شرح : أبو سعيد السكرى. تحقيق : د/أنور عليان , د/محمد الشوابكة . مركز زايد للتراث والتاريخ . الإمارات . ط.2000م .

- باشلار (جاستون): جماليات المكان .ترجمة : غالب هلسا. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. لبنان .ط2 .1984م.

-بشر بن أبى خازم الأسدى : الديوان .قدم له . مجيد طراد .دار الكتاب العربى . بيروت . ط1 .1994م.

-ابن حزم الأندلسى : طوق الحمامة في الألفة والألاف. مكتبة عرفة . دمشق .1349هـ.

-حسين كيلانى : دراسة نفسية في شعر عنترة بن شداد على أساس معنى(نظرية آدلر النفسية). مجلة آفاق علمية . مجلد 9. عدد502. 2017م.

-الحطيئة (جرول بن أوس بن مالك): الديوان. شرح: ابن السكيت. دراسة: مفيد محمد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت .ط1 .1993م.

-زهير بن أبى سلمى : الديوان .صنعه: أبو العباس الشيبانى ثعلب .مطبعة دار الكتب المصرية . ط1 .1944م.

-شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى).دار المعارف . القاهرة .ط11 .1960م.

-طرفة بن العبد البكرى : الديوان. شرح: يوسف الأعلم الشنتمرى . مطبعة برطية .ط.1900م.

-عنترة : الديوان .شرح: الخطيب التبريزى . قدم له : مجيد طراد . دار الكتاب العربى .بيروت .ط1 .1993م.

-غازى طليمات وعرفان الأشقر : تاريخ الأدب العربى .الأدب الجاهلى . قضاياه .أغراضه .أعلامه . فنونه .دار الإرشاد . حمص . ط .1991م.